مصرف لبنان
BANQUE DU LIBAN

أطفال المبرات غدنا أفضل بكم

كلمة رائـد شـرف الديـن - النائب الأول لحاكم مصرف لبنان

جمعية متخرجي المبرّات الخيرية - اللقاء العام السنوي

١٠ أيار ٢٠١٣ | بيروت

تكاد كلماتك لا تبارح ذهني – سيّدي- رغم مرور ما يقارب العقد من الزمان... كنتَ تستضيفني ومجموعة من طلابي في الماجستير في إدارة الأعمال لتحدّثنا عن مفهومك لقيادة التغيير في الأمّة. أخبرتنا يومها بأن: "القلق هو الحالة التي تنتج العبقرية وتنتج النمو، قلق الإنسان في اكتشاف الحقيقة واكتشاف الإنسان الآخر واكتشاف الحياة في حركيتها".

ثمّ أردفتَ مشترطاً أن يكون القلق قلقاً متحركاً إلى الأمام، محذراً من مغبّة الاعتقاد بامتلاك الحقيقة. لأن الحقيقة لا تحاصر، ولا بدّ من الانفتاح عليها كما هو الهواء الطلق وسحر النور. وقرأنا لك في بعض وصاياك أن "العالم يتحرك بقوّة وسرعة قياسية، يتحرّك في كل تلك البحار الصافية، ونحن نصنع في كلّ يوم وحلاً ثقافيا وروحياً وسياسياً"

دعنا نخبرك - سيدي- عن مآل أمورنا في السنتين الماضيتين:

يكاد القلق يكون عاماً وشاملاً، ونخشى أن يكون قلقاً متقهقراً نحو الوراء. لقد تعرضت معظم بلدان الأمة إلى حال من السخط الجامح إزاء الإخفاقات المتمادية والوعود الكاذبة التي أطلقها النظام العربي المتفسخ. يشمل ذلك الطموحات القومية، كما حاجة الناس إلى التنمية وتحسين ظروف معيشتهم وأمنهم الاقتصادي والاجتماعي؛ والحركات التغييرية المتناسخة تفتقد إلى الرؤية ووضوح الأهداف، كما تعوزها الإرادة والجرأة في استلام زمام الأمور، وهي سرعان مع تتشرذم بزوال النواة التي تشدها معاً (أي السخط على الحاكم)؛ كما يعيبها استسهال الاستقواء بالخارج .

المحصلة هي تراجع التحديات الجوهرية إلى أسفل قائمة الأولويات: أي تراجع قضايا الأمية والفقر والبطالة وتدهور البيئة. ترى! ما معنى الثورات إن لم تكن قامت لأجل مواجهة هذه القضايا؟.

قلّة هي المؤسسات أو الحكومات أو الجهات التي تنتبه وتتابع تلك القضايا. لنتابع مجريات حديثك إلينا...علّنا نتلمس معالم الطريق الواجب سلوكه في هذه الأيام الداكنة. أسمعك - سيدي - تردف بعد برهة تأمل: "مسألة التغيير هي صناعة الخارج من خلال الحركة التي تنطلق من الداخل الذي يمثّل أفكارنا ومشاعرنا {إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم}."

..وأتابع الاستزادة من معينك:

١- "علينا أن نبدأ بالقراءة والبحث ... وإنّ العالم يتحرك ومن يقف يسقط في موقعه، لأن العالم يتجاوز كل الذين يقفون"
٢- "لا تجعلوا المستقبل امتداداً للماضي أو للحاضر، بل اجعلوه تطوراً جيداً لما حصلنا عليه في الماضي وفي الحاضر"
٣- "عليكم العمل على الوقوف ضد الفكر الخرافي المتخلّف، وأن تسألوا أهل الذكر الذين يملكون العلم والثقافة والمعرفة"
٤- "المسألة أولاً وأخيراً تنطلق من حضور المؤسسة في داخلكم، أن يكون عقلكم مؤسسة في حركة الفكر وأن تكون قلوبكم مؤسسة في حركة العاطفة وأن تكون طاقاتكم مؤسسة في حركة التفجير والإنتاج والإبداع"
٥- "حقّ إنسانيتك أن ترفع إنسانية الآخر.. أنت إنسان بقدر ما تستطيع أن تعطي للإنسان الآخر"

أعرّج على ما قاله لزملاء لكم سبقوكم ذات يوم:

٦- "إنني لا أقبل أن تنجحوا بل أريد أن تبدعوا وتتفوقوا وتدركوا أن عليكم أن تجعلوا لفكركم حالة الاستقلال والحركية والحرية على قاعدة الاعتراف بالآخر للانفتاح عليه ومناقشته وحواره."

وأختم قائمتي هنا بما أوصى به العاملين في جمعية المبرات:

٧- "حاولوا أن تتدربوا على الابتسامة. أن تتدربوا على طلاقة الوجه وعلى الكلمة الحلوة، لأنها الروض الذي يشمخ في قلوب الآخرين"

ثمّ استدركُ مقتبساً توسلّه الأمة:

٨- "أن تستولد من رحمها قيادات شابة مؤهلة لقيادة الأمة والحفاظ على مصالحها. ومشددا على هذه الأمة - التي لا ينقصها العقل و لا الوعي- ضرورة أن تبقي القائد في موضع المحاسبة والمراقبة.

وأنا إذ أكثر الاقتباس منه أغامر بأن "أبيع الماء في حارة السقائين"، إلاّ أنني أجاهر وافاخر بما مثّله ويمثله سماحة السيد محمد حسين فضل الله (رض) لي، بل أجازف وأضع نفسي في قائمة من أحبهم وتوسم فيهم خيرا وأملا (أرجو أن أكون عند حسن ظنه)، ولن أجد مكاناً أرحب أو زماناً أنسب من الذي نحن فيه (أي: الآن وهنا) حتى استفيض في نبش ذكرياتي وأطلق العنان لمشاعري. عرفني وكنت ما أزال يافعاً، فزرع في طفولتي شغفاً دافئاً لأن أعرفه أكثر وأكثر.. وها أنا ألامس العقد الخامس من عمري وما أزال أكتشف السيّد، ومنه أستزيد.

كان لديه ذاك الدفق الهائل من الحنان. يغمرك حيثما كنت... ويتيح لك أن تنسحب من وهجه دون أن تفقد شيئاً من دفئه؛ بل كأنه يزرع فيك طاقة عظيمة من الخشوع والتواضع والإرادة والمحبة. ولعلّه وزّع هذه الطاقة بالعدل والقسط، فالمتجوّل في أروقة المبرات على امتداد الوطن، يحس بأن طيف السيّد هو المرافق اللطيف حيثما شاء الطريق. ها أنا أراه في عيونكم، وأتأمل حكمته في عقولكم المنفتحة وقلوبكم النوارة ومحبتكم الصادقة.

استميح الحضور عذرا إذا كنت استرسلت وأطلت. وأنتقل إلى أفكار عمليّة تتعلق بأوضاع البلد الآن. وهي أوضاع تتغير من يوم إلى يوم.

المتصفحون لمعلومات الشبكة ولشبكات التواصل الاجتماعي يصادفون ملايين الصفحات حول هذا الموضوع أو ذاك. أي أن هناك ملايين الخبرات ذات العلاقة. رغم ذلك، نواجه دوماً بمواقف جديدة تستدعي خبرات متناسبة معها. لهذا نتحدّث عن استراتجيات، خرائط طرق، سيناريوهات، بدائل، إلخ. ولا نجزم بوصفات جاهزة وحلول ناجزة واستجابات اوتوماتيكية. نحن مدعوون دوماً إلى تنظيم أفكارنا ومعارفنا حول استراتيجية الاستجابة الفضلى، وإلى مطابقتها أو تطويعها/ تعديلها تبعاً للموقف أو الوضع المطلوب مواجهته.

واقعنا اليوم وهنا، واقع مرير فيما عنى الفرص المتوافرة للعمل الكريم والخلاق[١]. معلومٌ للجميع أن الحركة الاقتصادية في لبنان ترتكز بقوّة على السياحة، ثم على حركة المغتربين

[١] يفيد تقرير لمنظمة العمل الدولية إلى أن ثلثي سكان لبنان قادرون على العمل، وإلى أن الثلث فقط يعملون (حوالي ١،٢مليون) يضاف إليهم قرابة المليون عامل أجنبي، وهي أرقام قريبة من دراسة أحوال المعيشة والتي ذكرت أن ٤٠% من عمر ١٥ سنة وما فوق، هي نسبة العاملين من مجمل السكان المقيمين من نفس الفئة العمرية. مع فجوة كبيرة بين الجنسين حيث أن نسبة العاملين عند الذكور هي ٦١%، ولا تتعدّى عند الإناث ١٩%. من

بأموالهم وأجسادهم، على العمالة الوافدة، وعلى الودائع العربية أخيراً. وهي بمجملها عناصر أو عوامل خارجية لا تخضع لسيطرة أو إرادة الداخل اللبناني. إضافةً إلى أنها مشروطة بأوضاع أمنية وسياسية مريحة، وهذا ما لا يتوافر حالياً.

يؤدي الدفق المالي باتجاه لبنان إلى تحفيز النمو، وبما أن مناطق وقطاعات معينة (السياحة في بيروت وجوارها) تحتكر هذه النمو، فإنه نمو انتقائي لناحية المستفيدين منه ويدفع بالمزيد من الشباب نحو هجرة أريافهم للعمل في الوظائف الخدمية البسيطة مع ثبات نسبي في الأجور. الأموال المتدفقة لتغذية الاستهلاك تدفع بالأسعار صعوداً (المساكن، الغذاء، إلخ)، مما يجعل الحياة باهظة التكاليف ويؤدي بالشباب المؤهل للهجرة نحو الخارج طلباً للمال وفرصة الحياة الكريمة؛ ومن جانب آخر، يؤدي ثبات الأجور إلى إحلال العمالة الوافدة في النشاطات الأكثر ازدهاراً مثل البناء والنقل والمطاعم والخدمات المنزلية، وذلك للتخفف من أعباء الضمان والطبابة والتقدينمات على أنواعها. وحيث أننا نتحدث عن ما يزيد عن مليون ونصف المليون وافد (أي ١ إلى ٣ من مجمل السكان) فإن مضامين ديمغرافية واجتماعية وإنسانية خطيرة تترتب على المسار الحالي لحركة الناس والأموال.

الوضع المطلوب مواجهته على مستوى الماكرو يتجاوز إطار المناسبة، ويحتاج إلى تباحث عميق بين الفعاليات السياسية والاقتصادية والأكاديمية. والوضع الممكن مواجهته على مستوى الجمعية والجامعة هو مطابقة الكفاءات المتوافرة أو تطويرها، مع حاجات سوق العمل ومتطلباته. ما أنا واثق منه أن هذه الجمعية العريقة، وبعض شقيقاتها، جهدوا وجاهدوا في التأسيس لمساقات تجسّر بين كفاءاتكم ومهاراتكم من جهة وبين سوق العمل من جهة أخرى.

لا بدّ لنا من الإقرار أن العوامل المحددة لسوق العمل وفرصه تتجاوز أحيانا - بل وغالباً- قدرات المعاهد والجامعات والجمعيات ؛ سأذكرها بإيجاز شديد:

جانب آخر، تؤدي الاختلالات المناطقية إلى موجات نزوح داخلي تمهيداً للهجرة نحو الخارج. يرسل المغتربون ما يكاد يصل إلى ٧ مليار دولار سنوياً أي ما يقارب٢٢% من الناتج المحلي. كما ساهمت السياحة (مثلاً)عام ٢٠٠٩ بـ ٩،٣% من الناتج المحلي ووفرّت نحو ١٥٠ الف فرصة عمل، وتتضاعف هذه الأرقام فيما لو احتسبنا الآثار غير المباشرة.

بالتأمل في المعطيات المبينة، ورغم التحسن المضطرد في نسب النمو ، وانخفاض نسبة الدين العام إلى الناتج المحلي (١٤٨% بعد أن كان ١٨٠% عام ٢٠٠٦)، ورغم الاجتياز السلس للازمة المالية العالمية والتي دفعت بالكثير من دول العالم إلى البحث في إمكانية الاستفادة من الأداء اللبناني، كما ثبتت موقع لبنان كملاذ للثروات من أبناء دول الجوار ومن المغتربين .. رغم كل المؤشرات الإيجابية، هناك مضاعفات عميقة واختلالات بنيوية لا بدّ من مواجهتها، سيّما وأنها أمور تتصل إما باسواق العمل في ظل الأوضاع الراهنة أو ببناء القدرات البشرية.

في لبنان وحسب دراسة البنك الدولي بالتعاون مع وزارة العمل MILES ، على الاقتصاد اللبناني أن يوفّر ١٩ ألف فرصة عمل سنوياً أي ٥ أضعاف ما يوفره حالياً وهو فقط ٣٤٠٠ فرصة. وعند الغوص في التفاصيل، سنعثر على مؤشرات أكثر إيلاماً، منها ارتفاع نسبة العاطلين عن العمل ضمن خريجي الجامعة (١٤% للرجال و١٨% للنساء)، ونصف القوى العاملة تقريباً يتركزون في أعمال ذات قيمة انتاجية متدنية كالبيع بالجملة وصيانة الآليات وخدمات الأكل، في حين يعمل ٩،٤% فقط في المعلوماتية والتأمين والمصارف والنشاطات العلمية.

- السياسات الماكرو- اقتصادية؛
- المناخ الاستثماري بما فيه واقع البنية الأساسية؛
- الظرف الأمني-السياسي (اللاإقتصادي)، مثل موجات النزوح، الحروب؛
- التشريعات المتعلقة بالعمل؛
- شبكات الحماية الاجتماعية؛
- نظم التعليم وبناء المهارات والقدرات.

تعمدت أن أستأخر المهارات والكفاءات لا للتقليل من أهميتها، بل للتركيز على الممكن والمستطاع. أو ربما لتسليط الضوء على ما أنا منحاز تلقائياً إليه وعنيت به الموارد البشرية. وما أعلمه، بل وما خبرته، عن جمعية المبرات الخيرية هو شدّة عنايتها بطاقاتها البشرية، وضخامة استثماراتها في هذا المجال وهي استثمارات مجزية لأن مفاعليلها لولبية وتراكمية، كون رسالة المبرات هي العناية بالإنسان. لا سيّما الطفل واليتيم وصاحب الحاجة الإضافية أو الخاصة ... وعندما يكون طاقم المواجهة (المدرس والمسعف والعامل الاجتماعي والإداري ...) عندما يكون هذا الطاقم جيّد التأهيل كامل التمكين، فإن أثر الأعمال يتسع كما أثر الحجر في بركة ماء.

أنا مدرك طبعاً بأن الجمعية أو المدرسة لا تستطيع اجتراح المعجزات لوحدها. فالعملية التربوية تبدأ في العائلة وتستمر فيها إضافة إلى الأتراب والوسيلة الإعلامية والمسجد، إلخ. لاحقاً، يدخل السوق والقطاع الخاص والجامعات، وامتداداتها من مراكز البحوث ومعاهد الإعداد والتطوير. وهذه المصفوفة من اللاعبين - فيما لو عزفوا منسجمين - هي بارقة الأمل في تشكيل المهارات البشرية الملائمة، وفي استنبات الحدائق اليانعة أذهاناً تسائل ذاتها دوماً عن الأفضل، وتسعى إليه.

أعود لسيّدنا،
"سمة عالمنا اليوم التغيّر، بل هو التطوّر المحتوم نحو ما هو أفضل (من تساوى يوماه فهو مغبون)".
ختمتُ بقول لسماحة السيّد الذي طالما وجدته معيناً خصباً في توصيف الأوضاع واقتراح الحلول.

سيكون غدنا أفضل. وسيكون كذلك بكم وبفضلكم، بفضل وفائكم وإصراركم وعطائكم.

وشكراً